المحاضرة -10-

مضامين و (تيمات) الرواية التسعينية

تعالقت الكتابة الروائية في تسعينات القرن الماضي مع الواقع الجزائري المأساوي الى أبعد الحدود ,راهن صادم للعقل و الحس و المنطق و القيم و يحيل الى عوالم لم تعرفها المخيلة الابداعية الجزائرية ،حتى في كتابات الرّواد مثل (محمد ديب) و (مولود فرعون).... باعتبارهم كذالك كتبوا راهنا جزائريا يعيش محنة الاستعمار و فظاعته و مع ذالك لم تكن عوالمهم حاملة لبشاعة و فظاعة ما حملته عوالم الرواية التسعينية.

و قد مال النقاد الذين واكبوا هذا الانتاج الى التركيز على المضمون لان طبيعته تحيل الى هذا الاهتمام لان الروائي مهما اجتهد في استخدام تقنيات جمالية و سعى لخلق بنيات فنية مستحدثة الا أن المضمون هو البارز في هذه الرواية لذا يستدعي الموقف انسانيا و ثقافيا التعامل مع النص وفق ما يقتضيه الجرح العميق الذي ينخر أجساد و نفوس أبناء الشعب و ذالك بمساءلة الواقع و الظروف التي أدخلت البلاد في هذه الدوامة الجهنمية دوامة الموت و الدماء...تجعل البحث عن الجماليات الفنية الشكلية نوعا من الترف.

لذا فان أهم المميزات الفارقة في كتابة المحنة أنها كانت تهتم بما يقع من أحداث و مما يتعرض له المجتمع من حرب على مقومات وجود المجتمع من خلال استهداف كل مكوناته المادية و البشرية فمقاربة ظاهرة كتابة المحنة لا تتحقق إلا بالتوصل الى المعنى الذي يريد الكاتب أن يقوله ثم الالتفات الى موقف الشخصيات و رؤيتها للأحداث و الوقائع و بنائها النفسي و الآليات العقلية و الروحية التي تطورها لمواجهة الموت المتربص بما يجعلها تأخذ أبعاد الأدب المقاوم ,تتحول الرواية أحيانا الى قراءة الأزمة السياسية و الظروف الاجتماعية و الاقتصادية وهنا تكون الكتابة هي وسيلة الكاتب لتجاوز محنته الذاتية و التخفيف من وطأة الجو القاتم الذي يعيشه الشعب حيث تصبح الكتابة ملاذ يعتصم به الكاتب من هول ما يحدث و الى سلاح يحمله كل المخاوف و الأحزان و صراخ في وجه الوحشية والهمجية ليستنهض الرأي العام في الداخل و الخارج في ذلك الظرف العصيب من التاريخ أصبحت الكتابة أقدر وسيلة تستطيع التصريح بما يخفيه السياسي و عالم الاجتماع و الاقتصادي.

لذا وجدنا الكتابة الأدبية تقوم بواجبها ـ حتى و لو كانت مستعجلة ـ لأن الارهاب في الجزائر كان فظيعا و وحشيا و استغرق زمنا طويلا فهو لم يكن حدثا بسيطا في حياة المجتمع و كان على الروائي أن يدينه و يدين الأسباب التي كانت وراء المأساة الوطنية و لهذا كانت حاملة لمآسي الواقع المؤلم و أسئلة الهوية و الايديولوجيا و أسئلة الوطن الجريح الذي عجز القلم عن وصف بشاعة الأحداث التي فاقت الخيال في فظاعتها و بشاعتها.

بما أن رواية المحنة كانت تعكس وقائع الراهن فقد كانت ويلات الارهاب و أثرها على الأفراد و الجماعات ،و القرى ،و المدن تمثل خلفية لمعظم الأحداث الروائية تأخذها النصوص و تنسج من وحيها عالمها دون ان تحاول

بناء معادل تخييلي يتتبع الأزمة منذ بدايتها التاريخية ،و لكن الواقع المضطرم بالحرائق و الفضاء المضرج بالدماء و هول ما يحدث و الأشلاء دفعت الكاتب الى الكتابة المستعجلة من أجل التنديد و الصراخ في وجه الهمجية ،و كان في الوقت نفسه المنعطف الحاد في حيوات الكتاب في بعدهم الذاتي كأفراد يحملون بين جوانحهم قلق الوجود البشري و ضعفه أمام المحن و الأزمات فكان من الكتاب من اتخذ من شبه محاكمة الماضي القريب و البعيد باعتباره جزءا من تاريخهم الشخصي في سياق الوجود و اتخذت تلك المحاكمة شكل السيرة الذاتية كمحاولة لاستخدام اللغة من أجل فهم الصعب و تأمل الماضي و الحاضر فجاءت العناصر السيرية متلبسة بالتخييل في كثير من الأعمال الروائية مثل 'مكر الكلمات ' و 'الكاتب' ل (ياسمينة خضراء) 'بوح الرجل القادم من الظلام' ل (ابراهيم سعدي) و ' الشمعة و الدهاليز' ل(الطاهر وطار) و 'ذاكرة الماء' و 'شرفات الشمال' ل (واسيني الأعرج) ونجد روايتي (واسيني) أقرب الى التخييل الذاتي منها الى جنس آخر.

فرضت المأساة الوطنية تيمات كتابية و أساليب سردية و طرائق بنائية اشتركت كلها في التنديد بالواقع و ادانة الأعمال الدموية و استطاعت أن تبعث مواهب روائية لم تكتشف موهبتها الا تحت طائلة صدمة الواقع العميقة التي دفعتها الى الكتابة.

فالنسيج الروائي للرواية التسعينية كان يثير جدلا واسعا حول التاريخ و الهوية و موضوعاتها في كل مستوياتها هي الأسئلة المتعلقة بالدولة بالنظام السياسي بالجماهير بالأحداث المريعة... هي التي تغذي المشاغل الروائية

و انطلاقا من كون الرواية مجرد خطاب محاكم للراهن بشتى تجلياته دون التزام من بعض الروائيين بضرورات الفن الروائي و مقتضياته التخيلية ـ ينطبق هذا على أعمال جاءت تحت الحاح الواقع الدموي و تبليغ الصوت الرافض و المندد أو تجارب اولى لبعض الشباب ـ لا ينطبق هذا على كتّاب سجلوا تراكما في الساحة الروائية الوطنية و العربية و العالمية مما يضعها في مصاف التجارب المعبرة عن الراهن و تناول نفس الموضوعات و لكن بطريقة فنية و جمالية متميزة مثل منجزات (الطاهر وطار) و (واسيني الأعرج) و (رشيد بوجدرة) و (ياسمينة خضراء) و (أحلام مستغانمي) .. وغيرهم ,و من المواضيع التي قدمت بتشكيلات مختلفة و كان حضورها مكررا و بارزا و مكثفا في المتن الروائي التسعيني أزمة المثقف.

<u>رواية المحنة و التاريخ :</u>

يرتبط التاريخ بالفن الروائي ارتباطا بارزا و يكاد يجمع النقاد على أن العلاقة بينهما علاقة اشكا حيث تتشابك بينهما الكثير من الخطوط خاصة و أنهما يعتمدان على الكثير من المكونات المشتركة كالانسان و الزمان و المكان و الطابع القصصي فما من رواية إلا وتقوم على بنية زمنية تاريخية تتشخص في فضاء مكاني و تمتد من الماضي الى لحظة الكتابة و قد تتجاوزها الى المستقبل و كذالك التاريخ فهو نوع من الرواية لأحداث وقعت في الماضي و نمط من الحكاية عن أشخاص و ظواهر و أحداث اجتماعية و اقتصادية و سياسية فالرواية تاريخ متخيل داخل التاريخ الموضوعي كما يقول: "محمود أمين العالم" .

و بما أن الرواية تتناول ظواهر اجتماعية ،و كل ظاهرة اجتماعية هي ظاهرة تاريخية كما يقول "باختين" يمكن القول أن الرواية مصدرا أساسيا للتاريخ ,لأنها الأقدرعلى التغلغل في طيات المجتمع و خبايا النفوس و الأقدر أيضا على انطاق المسكوت عنه في الفضاء السياسي و الثقافي و الاجتماعي ،نعم ان الرواية ليست تاريخا و لكنها تسعي الى تقديم رواية متخيلة قادرة على سرد الحكاية الحقيقية و قد تراكمت نصوص أساسية يمكن النظر اليها بوصفها المدونة السردية المتخيلة للمحنة الجزائرية.

و يتقاطع الخطاب الروائي و الخطاب التاريخي عند عدة نقاط أهمها الذاكرة و المظهر السردي و ان كانا يفترقان عند علمية الخطاب التاريخي نقاط الالتقاء هذه هي التي يسرت اشتغال الرواية على التاريخ في مختلف المراحل التي مرت بها انطلاقا من مراحلها التأسيسية الأولى حين جعلت المادة التاريخية مادة سردية كما هو الحال مع الروايات التاريخية الاولى و حتى الحركة الرواية الحديثة حيث تعددت أوجه استثمار الخطاب التاريخي فالعلاقة التي تربط الرواية بالتاريخ تعتمد على أخيلة التاريخي و أرخنة الخيال لتعطي في النهاية ابداع روائي.

و نجد أن تاريخ المحنة الجزائرية يحمل أحداثا مأساوية تذهل عصرها تصدم بفواجعها الأرواح و تربك العقول و تجعل الكائنات مشلولة وعاجزة عن التفكير ,الواقعة المأساوية أقوى من كل قدرة على التعبير عنها بل أن جماليات اللغة نثرا و شعرا سوف تبدو فقيرة تماما أمام البلاغة الصادمة للواقعة المأساوية لذالك تمتحن في زمن المحنة قدرة المبدع على التمكن من لغته الابداعية لأجل الانتصار على قوة المأساة للتعبير عنها بقوة فنية تضاهيها.

على الأديب أن ينتصر على اللغة الابداعية و يجعلها في خدمة التصوير الفني الجمالي للفجائع المأساوية و قد استطاع بعض الأدباء دخول ثنايا التاريخ الدموي و تسجيله بطريقة ابداعية متميزة.

ما نلاحظه على تاريخ الجزائر في تلك الفترة أنه تاريخ الوقائع المستحيلة فبأي لغة جديدة و بأي رؤية فنية ينقلها المبدع؟

ان سلوكية الاستجابة السردية تقتضي أن تكون كتابة التاريخ و بنائه المخيالي في الأدب هي عملية اعادة بناء لما عايشه الروائي في عالمه من قسوة التاريخ و وقائعه و ما تلقاه في مساره من آلام و مآسي لم تهد معالم مرجعية لذه المرحلة التاريخية و حسب ,بل صارت معالم مميزة لتلك الفترة التاريخية التي بلغت من قوة تخييل الأحداث في نصوصها قوة تضاهي عمق الجراح التي تركتها في الذاكرة الجماعية. يلتقي التاريخ بكل مفاهيمه الحوادثية و التوثيقية و شخصياته بفن الرواية بزخمها التخييلي الذي يستوحي من طاقة التسريد ،تشكل الموقف السردي و تسجل ابرز الحوادث و أكثرها اثارة و استفزازا لذاكرته و من تلك المثيرات الواقعية يتشكل فنيا ما يسمى الفن الروائي.

و هذا التشكيل الفني للتاريخ نجده في الكثير من النصوص الروائية الجزائرية التي توثق أو تستلهم ما وقع في تلك المرحلة التاريخية الشائكة في تاريخ الجزائر الحديث.

الهدف العام من المحاضرة :

ـ الاحاطة بطبيعة رواية المحنة

ـ معرفة العلاقة بين الرواية و التاريخ

المراجع :

ـ قراءة في الرواية الجزائرية متن العشرية السوداء بين سطوة الواقع و هشاشة المتخيل عبد الله شطاح مؤسسة النور للنشر و التوزيع مجلة الحكمة عدد جويلية

ـ الواقع و المشهد الأدبي بداية قرن و نهاية قرن مخلوف عامر المكتبة الوطنية الجزائر

ـ علاقة الرواية العربية بالتاريخ منى بشلم مجلة كلية الآداب و اللغات بسكر ة الجزائر عدد 13 2017

انشطة التقويم:

- اسئلة حول الأفكار الرئيسية للمحاضرة

- كتابة مقال حول طبيعة الرواية وعلاقتها بالتاريخ